ثورة الأدب الرومانسي وحركة التغيير

كان لظهور المدرسة الرومانسية في أوروبا بعد قرن ونصف من ظهور الحركة الكلاسيكية، تهدف إلى التخلص من سيطرة الآداب الإغريقية والرومانية، وبخاصة حينما بدأت أقطار أوروبا تأخذ نفسها نحو الاستقلال في اللغة والأدب والفكر والاستعداد لدخول عصر النهضة.

وتشتق الرومانسية من لفظة (رومانيوس) وهو لفظ سويسري أطلق على اللغات والآداب المتفرعة عن اللغة اللاتينية القديمة.

نادت المدرسة الرومانسية وقامت بتغيير في بعض مبادئ وأركان المدرسة الكلاسيكية وهدمها للبعض الأخر جعل منها أهم حركة أدبية في تاريخ الأدب العالمي وأخطر مذهب أدبي عرفته الحياة الأدبية العالمية سواء في فلسفته العاطفية ومبادئه الإنسانية، أم في آثاره الأدبية والاجتماعية.

يقول الدكتور محمد مندور في كتابه (الأدب ومذاهبه): «يمكن القول أنها قد كانت في جوهرها ثورة تحريرية للأدب من سيطرة الآداب اليونانية واللاتينية القديمة ومن كافة القواعد والأصول التي استنبطت من تلك الآداب».

الرومانتيكية، الرومانطيقية، الرومانتية، كلمات تؤدي إلى معنى واحد تنبع منه وهو الرومانسية.

وأهم ما برز فيه أدباء الرومانسية هو الشعر، والفضل يعود إلى ويليام ووردزوورث (7 نيسان/أبريل 1770 – 23 نيسان/أبريل 1850) وصامويل تايلر كولريدج (21 تشرين الأول/أكتوبر 1772 – 25 تموز/يوليو 1834) الذين ألفا معاً أول كتاب في الأدب الرومانسي والحركة الرومانسية الذي يعرف بالأناشيد الغنائية، وهو كتاب شرح كل ما يجب معرفته عن الرومانسية وحب الطبيعة والخروج عن قواعد الأدب الرصينة والمحدودة التي وضعها الأدباء الفيكتوريون والمدرسة الكلاسيكية الحديثة في القرن الثامن عشر.

وظهرت الرومانسية كمذهب أدبي في عام 1820 في ألمانيا وإنكلترا قبل أن تنطلق في فرنسا وإيطاليا حيث تأخرت إلى العقدين الثاني والثالث منه. ويعود الفضل في نشأتها إلى رواد مهدوا لها من مثل كنت، وغوته، وشيلر، وإلى دعاة مفوهين من أمثال الأخوين شليغل، ونوفاليس، وشلايرماخر الذين أصبحت ألمانيا بفضلهم مركزاً لإشعاع الفكر الأدبي بعد أن كانت مجرد متلق سلبي في عهد الرومانسية الجديدة، وربما كانت إنكلترا أول متلق لهذا الإشعاع الألماني الذي تلقفه كل من وردزورث وكولريدج الذي أغناها بقراءة معمقة للتراث الأفلاطوني وما لبث هذا المد أن وصل فرنسا التي ظلت الاتباعية مهيمنة فيها أكثر من قرنين، مما جعل تفجر الرومانسية فيها مقروناً بالتوهج والعنف، وقد ساعد على تفجيرها، مدُّ الثورة الفرنسية ثم انسياح الملحمة البونابرتية التي طبعت أوروبا بميسمها في مدى عشرين عاماً، وعلى الرغم من شعور الكراهية لعهد الإرهاب الذي خيم على الثورة بظله البغيض، فإن مبادئها ظلت ترفد الخيال وتمده بدمها الحار المتدفق في شرايين الأدب، محدثة صدعاً عميقاً في كيان الاتباعية، وكانت لانطلاقها الثورة على الأوضاع ولم تكن في الأدب فحسب بل في جميع المجالات – وإنما تاريخ الرومانسية بدأ في عهد أبعد على يد دنيس ديدرو عام 1750 ومدام دي ستال – وروسو لهم الفضل في ترسيخ الرومانسية كمذهب أدبي.

كانت التغيرات الاقتصادية والسياسيّة والاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حتمت على أوروبا تغيير اتجاه مصادرها الثقافية، وقلبت رأساً على عقب الذوق الأدبي والفنّي في المجتمع، وممّا سهل انتشار الرومانسية الجو السياسي الأوربيّ، فعلى ضوء المصابيح الثورية، وعلى صوت مدافع الثورة الفرنسية ظهرت طبقة جديدة تسلّمت مقاليد الحكم والسلطة، وظهرت مفاهيم الأمة والشعب والمواطنة والحرية والمساواة والعدالة، وعمّ هذا التيار كلّ أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر، وهي المدة الموازية لتصاعد القوميّات وشعور الأدباء بغنى الألوان المحليّة وضرورة العودة إلى المنابع الحيّة للإلهام، وفي فرنسا بصورة خاصّة، وافقت هذه الحركة المجدّدة تطلّع المثقفين إلى تحرير المضطهدين وإنصاف المظلومين والمحرومين منذ عهود سحيقة، كما أن انحلال نظام نابليون وعودة النظام القديم ومُثُله أرهصت للتطلع نحو ظهور البطل الرومانسي المتعطش للحب والشعر والجمال.

ومن جهة أخرى فقد سببت مجازر الثورة ثم الحروب الطاحنة في أوروبا صدمةً عند الجيل الذي كان مشبعاً بروح الوطنية والمغامرة والأحلام بانتصارات عظيمة ومستقبل زاهر لبني الإنسان، حين وجد نفسه خائباً ومحروماً من كل مثال وأمل، فسادَ شعورٌ بالخيبة والإحباط والقلق والانطواء على الذات، ونتيجة ذلك ظهر في الطبقة البورجوازية والوسطى أدباء وفنانون، لم يتجهوا إلى النخبة النبيلة أو المثقفة ولا إلى القصور والحكام بل إلى سواد الشعب، وهجروا اللغة النبيلة المتكلفة ولغة الصالونات الأدبيّة، وبذلك تجددت الأساليب والمفردات والأجناس، وحلّ مفهوم (الفرد) محلّ المفهوم الكلاسيكي للإنسان، وعمّت الرومانسية أوروبا، وحرّرت العواطف والأفكار والأذواق وشملت كل النواحي الاجتماعية والإبداعية من اسكندينافيا إلى أسبانيا وإيطاليا، ثم عبرت المحيط إلى أمريكا، ودامت مدةً تزيد على القرن، مع الإشارة إلى أن هذه الموجة ليست ذات طابع واحد في كل مكان، بل هنالك ألوان داخل هذا الإطار الكبير، ألوان بعدد الأقطار، بل بعدد الأدباء.

وفي القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان هذا اللفظ يطلق مقصوداً به وصف كلّ بادرة جديدة تتحدّى القواعد الأدبية المترسخة بالذم أو النقص، يقول الشاعر (غوته): (الكلاسيكية صحّة، والرومانسية مرض). ولم يجرؤ أحدٌ من الشعراء الفرنسيين أن يطلق على نفسه وصف (رومانسي) حتى عام 1818 حين أعلن (ستندال): «أنا رومانسي، إنني مع (شكسبير) ضد (راسين)، ومع (بايرون) ضد (بوالو)».

أما الآن فإن مصطلح (الرومانسية) يُطْلَقُ على مذهب أدبيّ بعينه ذي خصائص معروفة، استخلصت على المستوى النقدي من مجموع ملامح الحركة الأدبية التي انتشرت في أوروبا في أعقاب المذهب الكلاسيكي، وكذلك على هذه الفترة وما خَلّفَتْ من إنتاج على المستوى الإبداعي. والرومانسيّ يرفض تقليد نماذج الأقدمين، ويريد أن يكون مخلصاً لنفسه، وأصيلاً في التعبير عن مشاعره وقناعاته، وهو يقدّم كيفيةً جديدة في الإحساس والتصور والتفكير والانفعال والتعبير.

لقد انتشر المذهب الرومانسي في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا، ولكنه بقي في الأوساط الأكاديمية الرسميّة منظوراً إليه بشيءٍ من الريبة والاستنكار، واشتدت الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد، وتباعد السياسة والأهواء بينهما، فكان بعضهم يجتمع حول صحيفة «الكونسرفاتور الأدبي» وبعضهم الآخر يضمه صالون «إتيين دي لوكلوز» وانقسم مريدوها إلى فئتين تنطق بلسان الأولى صحيفة «ربة الشعر الفرنسية» ذات الاتجاه المعتدل، وتنطق بلسان الثانية صحيفة «الكوكب» ذات الاتجاه التحرري، وبدا فيكتور هوغو، كأنه الرئيس الموجه للرومانسية، وإذ إنها ترتكز على المسرح بصورة خاصة، فقد ألفى الإبداعيون أنه من الأجدى لهم أن يفوّقوا سهام نقدهم إلى معقل الاتباعية التقليدية: المسرح. وكذلك ترادفت مقالات وبيانات شتى وقعها هوغو ودي شامب وسانت بوف، جلوا فيها منطلقات الرومانسية وأسسها، مركزين اهتمامهم على المسرح، ومع ذلك فلم يكن في جعبة الإبداعيين أثر مسرحي، يمكن أن يضاهي بنضجه وكماله مسرحية «السيد» لكورنّي، وكان من آثارها ظهور مقدمة مسرحية فيكتور هوغو: (كرومويل) 1827، والجدل العنيف الذي ثار حول مسرحيته (هرناني) 1830، ثمّ تسربت ملامح هذا المذهب الجديد إلى البرتغال وروسيا وإنكلترا، وكان فيكتور هوغو (1788 – 1824) قد دافع بحماسة عن نسبية الذوق الشعري وعلاقته بالتطور الزمني والاجتماعي، فأصبح بذلك رومانسياً دون أن يدري، وأصبح من أعلام الرومانسية فيما بعد كل من: سكوت وكولردج ووردزوُرث وشيلّي.

لقد تصدى هوغو في مسرحيته (هرناني) لقلعة الاتباعية وقواعدها المعروفة في المسرح، ولاسيما لقاعدة الوحدات الثلاث، وقد وسم تصديه العنيف بمعركة هرناني الناشبة ما بين مرحب منافح عنها، ومهاجم منتقد لها، وقد استلهم هوغو موضوعها الشائق من تاريخ أسبانيا، واتسق له أن يستشرف بها ذروة الإبداع والروعة، بما يترقرق فيها من غنائية وماء وطلاوة. وهكذا أضحى عام 1830 منعطفاً مهماً ضمن أبرز اتجاهات الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر وقمة باذخة تماثل – على حد قول لامرتين – قمة جبل شامخ بين منحدرين.

وتتصف الإبداعية في بقية البلدان الأوربية، ولاسيما في ألمانيا وإنكلترا، بأنها لم تلق عنتاً يماثل ما لقيته الإبداعية في فرنسا، ولم تتسم بمثل حدتها، وقد برزت ملامحها العامة، في هذين البلدين، قبل أن تؤتي الإبداعية الفرنسية أكلها وثمارها، ففي ألمانيا، هيمن طيفا غوته وشيلر، في البدء، ثم أتى هولدرلين ونوفاليس وهاينة ليغنوا الإبداعية الألمانية ويهبوا لها آفاقاً من غوارب الخيال المجنح، وفيضاً من العاطفة المتدفقة. أما في إنكلترا فقد طغى طيف شكسبير، بمسرحه الخصب المتنوع، المترع بنزوات الأهواء ولهب العواطف، ثم اشرأب من بين أعلام الإبداعية الإنكليزية، وردزورث وكولردج وكيتس، لتسم العاطفة المرهفة في أشعارهم، وشق والتر سكوت طريق الرواية التاريخية النابضة بالصور المعبرة الحية، وترادفت روايات الشقيقات شارلوت وإميلي وآن برونتي شوامخ بين آثار الرواية الإنكليزية الإبداعية بما يترقرق فيها من حساسية وعاطفة.

المرأة والطبيعة، مجلىً للإبداعية:

لا ريب أن المرأة هي مصدرٌ رئيسٌ أساسيٌ لإلهام الشاعر، تثير فيه أعمق ما يمور في جوانحه من مشاعر، بيد أن السعادة التي ترفض المرأةُ أن تهبها له، أحياناً تحملُه على أن ينشدها في الطبيعة نفسها، ولربما بدت المرأة والطبيعة متماثلتين، في إثارة مواجع الحزن والأسى لديه على نحو ما عبر عنه جيداً هوغو في قصيدته «حزن أولامبيو» التي يفصح فيها البطل عن خيبته المريرة من المرأة والطبيعة معاً، فلا عجب إذن أن تخلق الرومانسية نموذجاً جديداً للبطل، مخالفاً لنموذج البطل في الكلاسيكية، إذ يتراءى في الرومانسية فيما هو يجتر آلامه، منفرداً وحيداً، كما يتراءى وجوده سلسلة من التمرد والنضال، لأن نهاية هذا الوجود واشيةٌ بالإخفاق، الذي تفرضه لعنة قاسية شرسة، وتظل الطبيعة بعد هذا كله، الملاذ الأخير الذي يفزع إليه الشاعر الحزين، ويجد فيه سلواناً عما ألفاه في الحياة من إحباط، وما لقيه من المرأة من صد وهجران، ها هي ذي الطبيعة إذن تناديه وتخلص له، على النحو الذي عبر عنه لامرتين بقوله: «ها هي ذي الطبيعة ماثلة أمامك، إنها تحبك وتدعوك» وحين تأخذ الأرض زخرفها مُمْرعة زاهيةً، فإنها تعلّم الشاعر أيضاً وتلهمه: «إن نبضة واحدة من غابة ربيعية – كما يقول وردزورث – كفيلة بأن تعلمنا عن الإنسان، وعن الخير والشر، أضعاف ما يعلمنا إياه الحكماء كافة».

وللأدب الرومانسي مقومات، التعبير عن الذات، وحب الطبيعة، وكان روسو لا يجد السعادة إلا في أحضان الطبيعة، وكان يختار كلماته بمنتهى الشاعرية فضلاً عن الإيقاع الموسيقى الذي أدخله في جمله، ونجد أيضاً مدام دى ستال لها دور بارز في الأدب الفرنسي والسياسي معاً حتى أن نابليون أبعدها عن الحركة السياسية لأفكارها الانقلابية والمتحررة، وكان لها إسهامٌ مهم ومبكر في الدراسات الأدبية والنقدية التي شجعت الاتجاه نحو الرومانسية، ففي كتابها (من الأدب) بينت أن الحرية أساس التقدم، ولذلك كانت تبحث في كل عمل أدبي قديم أو حديث عن توهج الحرّية أو خمودها، وتهتم بالبحث عن تأثر الأدب بالفضيلة والخير والمجد والحرية والسعادة والعادات والأمزجة والقوانين، وعن تأثيره في هذه الجوانب، وبذلك فتحت الباب للبحث في علاقة الأدب بالمجتمع، وتضمن كتابها (من ألمانيا) فصولاً نقدية في الشعر والرومانسية، وأخرى في النقد عند (ليسنغ) و(شليغل)، وعرّفت القراء الفرنسيين إلى الشعراء الألمان مثل غوته وشيلر، والأدباء الروس والإنكليز، وسبقت بأفكارها حول الرومانسية (شاتوبريان) وأكملت آراءه.

أما عن الكاتب الذي ينتسب له الرومانسيين جميعاً هو فرانسو رينيه الفيكونت دوشاتوبريان ذلك الرومانسي الحالم الحزين الرائع الذي أسهم في الاتجاه نحو الرومانسية في معظم ما تركه من كتب ومؤلفات، فقد وسع مفهوم الالتفات إلى الطبيعة بكثرة ما وصف من المشاهد الطبيعية التي شاهدها في البلدان الكثيرة التي طوّف بها من أمريكا إلى فلسطين، بما في ذلك البحار والغابات والجبال والأنهار التي عاشرها آناء الليل والنهار وأحسّ بما توحيه من العظمة والروعة والوحشة، وتعاطف الإنسان معها وامتزاج أحاسيسه بها.

أما الكآبة العصرية فكانت معروفة قبله في مؤلفات روسو في (هيلويز الجديدة) 1760، ولدى غوته في (فيرتر) الذي ترجم إلى الفرنسية عام 1778، ولكنها كانت ترد لديهما في لمحات قليلة أو استثنائية وشخصية بخلاف ما هي عليه في كتاب شاتوبريان: (رونيه) الذي شخّص فيه كآبة العصر بكامله، وأبرز مآسيه الشاملة وما انتابه من كوارث الموت والدمار والخيبة في أثناء الثورة الفرنسية وما تلاها من الحروب، حيث لم يبق عزاءٌ إلاّ في الطبيعة والدين، مما جعل هذا الاتجاه أساساً للغنائية الجديدة بمعنييها السلبي والإيجابي.

أما تجديده في النقد الأدبي فيبدو في انتقاله من نقد الأغلاط والعيوب إلى النقد الجمالي، والربط بين الأثر الأدبي والحالة الحضارية والمزاجية العامّة، لأنه نتاج هذه الحالة والمعبر عنها والمؤثر فيها، وفي الحقيقة كانت مدام دوستايل قد سبقته إلى ذلك، ولكن خصوصية (شاتوبريان) تكمن في حسمه الخصومة بين القديم والحديث لصالح الحديث، عندما بنى أحكامه وتقويماته الأدبية والفنّية على ذوق عصره وعقيدته أكثر من تعويله على النظريات المعرفية السابقة، وبمقارنته بين نماذج الرجل والمرأة والأم والزوجة والزوج والمحارب في الأدب القديم والأدب الجديد، وتأكيده أن أصالة الكلاسيكية لم تكن لتسطع في بهائها إلا فيما أضافه الكتّاب من الإغناءات والتغييرات على نماذجهم البشرية من خلال النظرة النسبيّة.

وجاءت الرومانسية كمذهب أدبي في محاوله لمحاربه الأوضاع آنذاك والوصول بالإنسان للرقى الحضاري والتحرر من القيود الأدبية والدفاع عن الحرية والإنسانية وإعطاء

فريدريك شيلر - نوفاليس - دنيس ديدرو - فرانسو دوشاتوبريان - اللورد بايرون - أوجست شليغل - ألفرد دي موسيه - غازي القصيبي - علي محمود طه - جبران خليل جبران - إبراهيم العريض - إيليا أبو ماضي - أبو القاسم الشابي - إبراهيم ناجي - ميخائيل نعيمة

الإحساس والعقل معاً دوراً بارزاً في الحياة فكان أول ديوان شعري يجسد الرومانسية هو ديوان (تأملات شعرية) لامرتين ففيه حب الطبيعة وحب الله وتجسيد واضح للحب الصافي النقي بلغه شعرية عذبه رائعة يقول في ديوانه:

إن الطبيعة هنا حولك تدعوك وتحبك
فارتم في أحضانها وعلى صدرها الحنون
فهو دائماً مفتوح لك عندما يتغير كل شيء
من حولك فالطبيعة لا تتغير
نفس الشمس تشرق على أيامك

في شعر لامرتين نجد الرقة والعذوبة ورهافة الحس.

تابع الثراء الرومانسي بعد لامرتين على يد فيكتور هوغو ونشر جريدة الموز الأدبية في محاوله لنشر الرومانسية وجاءت روايته الرائعة كروميل تعبيراً صادقاً على عظمة هوجو والرومانسية عموماً. نجد في الرواية الشعرية التحرر من القيود مع الاحتفاظ بروح القصيدة، ورغم ذلك ظلت الرومانسية في خطر، وقال هوجو وقتها: «لقد فتحت الثغرة وسوف تمر»، وتوالت المسرحيات الأدبية وظهرت مسرحية (هرناني) لهوغو التي لاقت انتصاراً رائعاً وانتصرت الرومانسية 1830 ويقول هوغو: «إن الحب الإلهي هو الغاية السامية لكل المحبين، والله موجود بقوة في الأدب الفرنسي الرومانسي وجميع الكتاب الرومانسيين يعرفون الله وإن للوجود خالق».

وجاءت الروائع تتوالى فمسرحيه سقوط ملاك وجوسلان للامرتين جاءت أروع مما كان يتصوره البعض من الإبداع القصصي والغزارة الشعرية والاتساق الأدبي واتجه لامرتين للقضايا الاجتماعية وكان له أثراً رائعاً في المجتمع الذي يعيشه واشترك في الحياة العامة، وكان مثل هوغو عضواً في البرلمان الفرنسي، وأخذ لامرتين يطالب في أشعاره بمجتمع مبني على الأخوة والمساواة، وكان إنتاج هوغو غزيراً فكتب عشرين ديواناً وملحمة مثل التأملات وأوراق الخريف والأصوات الداخلية، وكان هوغو مؤثراً كلامرتين في المجتمع فكان يهجو نابليون ويقول هوغو عن ديوانه (التأملات) أنه مذكرات روح، وكان يتمتع بخيال خصب يوحى بصور بديعة وتشبيهات جديدة تبهر القارئ.

ونأتي لشاعر آخر له الأثر الكبير في الأدب وهو الفريد دى موسيه لقد عاش ومات تعيساً، وهو الطفل الشقي في أسرة الرومانسيين، ويقول موسيه: «لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم بعد أن تعذبنا علينا أن نتعذب من جديد». ونجد من الكتاب العظماء دوماس صاحب (الفرسان الثلاثة)، فهو أيضاً كان من الأدباء الرومانسيين المتمردين على الواقع.

وقد رأت مسرحيات موسيه الرواج العظيم ومن المؤرخين الرومانسيين المؤرخ ميشليه وكان يتمتع بحس مرهف وقلب يخفق بالحب وكرس حياته للدفاع عن المحرومين وعن حقوق الشعب ومن أعظم مؤلفاته تاريخ فرنسا.

وانتشرت الرومانسية في جميع المجالات ففي الأدب نجد لامرتين وهوغو وغيرهم وفى الفكر نجد روسو وفولتير وفى التاريخ ميشليه وغيرهم في نواحي الحياة وانتشرت الرومانسية انتشاراً رائعاً وتفاعلت مع الواقع والمجتمع وكان لها دور بارز في محاربه الفقر والجوع والحكم الفاسد ونشر الحرية والديمقراطية والكفاح ضد الظلم والجبروت وسعت لرقى الإنسان وازدهاره وتقدمه الفكري والحضاري، وانتقلت من فرنسا للعالم العربي وتكونت لها المدارس والمنتديات والمجلات والإذاعات.

ومن خصائص هذه المدرسة نجد أن الأدب الرومانسي اتصف بعدة صفات أهمها: أنه يجحد العقل، ويتوج مكانه العاطفة والشعور، ويسلم القياد للقلب. هو أدب ثورة وتحرر، وعاطفة يكثر فيه الشعر الوجداني والإفضاء بذات النفس في قوة تشي بطابع الفرد وتعبر عن آلامه فهو أدب ذاتي يشوبه عدم الرضا بالواقع ومحاولة التمرد عليه، والتغني بالألم والهروب من الحياة المدنية والقلق على المجتمع وما يعج به من أحداث والحزن الغالب على النفس في كل حال وبدون سبب و التمرد على عقلانية عصر التنوير، كما اقترنت هذه الحركة بالحنين إلى الشرق، هذا العالم الغريب الغامض المليء بالأسرار الذي وجد الرومانسيون في فروسيته ونورانية مشاعره وقوداً للخيال ومصدر خصب للتعبير عن العاطفة أوفر حرارة وحيوية من نور العقل والمادية وحب السلطة التي هام بها فلاسفة الغرب ...

وهكذا عمت الرومانسية جميع أقطار أوروبا وأصبحت مذهباً قوياً يناهض الكلاسيكية، ولكنها لم تَسُد فجأة بل تبعت منحى تطورياً بطيئاً مرّ بمراحل عديدة من الإرهاص والتجربة والتحضير والتعايش مع النظام الكلاسيكي في كثيرٍ من الشّقاق والتصادم حتى عمّ الاقتناع به أوربا كلها، وقد استغرق ذلك قرابة قرنٍ من الزمان.

فقد خلَّفت الرومانسيّة بصماتها على الأدب كله، وتحدَّرت حساسيتها المتوفِّزة، وعاطفتها المُتَّقدة، إلى حركات وليدة جديدة، لم تستطع أن تستغني عن لَهَب العاطفة ودفء القلب ووساوس الوجدان. يقول الشاعر الألماني آيخندورف: «إن الرومانسية هي أبعد من أن تكون حدثاً أدبياً، بسيطاً فحسب، إن هدفها لينحو إلى مدى أرحب، هو إنجازُ خلقٍ جديد للوجود كله، كما كان يدعو إلى ذلك نوفاليس». وانفطر نهر الرومانسية اللُّجيُّ العارمُ إلى جداول شتَّى، لنجد الحركة السريالية نفسها تحذو حذو الرومانسية في إيثارها بدواتِ العاطفة ونزواتها وعالمَ الأحلام ورؤاه على العقل ومنطقه الجاف البارد، ونجد قوافل من الكتاب المبدعين، تنحو نظراتهم إلى الإبداعية، تأخذ عنها وتتأثر بها، مثل أونوريه دي بلزاك الذي استجلى في رواياته كلها ملامح المجتمع الفرنسي بكل ما يحفل به من طبائع وأهواء ومباذلَ، وانساق أسلوبه المميّز في سياق الرومانسية والواقعية والطبيعية معاً، كما نجد كاتباً معاصراً جان جيونو يجلو بأسلوبه العفوي المتدفق كلَّ ما يزخر به الريف الفرنسي من زخرفٍ وجمالٍ، لينحو في مؤلفاته الأخيرة، إلى ستاندال ويأخذ بمدرجته في موضوعاته وأسلوبه، ونلفي كاتباً معاصراً آخر هو فرانسوا مورياك يغمس قلمه في مداد العاطفة والأهواء الجامحة التي كان يسعى الإبداعيون الأوائل جاهدين لاستجلائها.

يقول ميشيل بوتور أحد كتاب الرواية الجديدة في فرنسا: «لقد بدأت الحركة الرومانسية في نهاية القرن الثامن عشر، ومازالت تنمو مطَّردة من دون انقطاع حتى الآن». ويؤكد ذلك غايتان بيكون بقوله: «على الرغم من جميع ردود الفعل المضادة للرومانسية التي اتسمت بها المرحلة التي أعقبتها فإنه يمكن القول إن الأدب المعاصر ينبثق من الإبداعية، فمنها وحدها انبجست الحرية نفسها التي أنكرتها ورفضتها».

الرومانسية في البلاد العربية:

ولم يكن العرب بعيدين كثيراً عن هذه المدرسة، فظهرت الحركة الرومانسية أولاً في سوريا، وتبعتها بقية بلاد الشام، ثم واصلت هذه الحركة تقدمها إلى أن غزت العالم العربي بأجمعه و أصبحت جزءاً لا يتجزأ من مسيرة الأدب العربي.

وبالرغم من أن الرومانسية العربية كانت في بادئ نشأتها انعكاساً للرومانسية الغربية، فإنها لم تصل في جميع مراحلها إلى ما وصلت إليه الرومانسية الغربية من إلحاد وأعمال سيئة غير أخلاقية أضفت عليها طابع التشاؤم، وألقت بأدبائها إلى بؤرة الجريمة، لقد بقيت الرومانسية العربية محصورة في حدود الدعوة إلى الرجوع للذات، ووصف تجارب الأديب الفردية والإنسانية في حدود ما يشعر به أو يصل إلى تفكيره؛ فوجدت بذرة الرومانسية في الحضارة العربية تربة صالحة لنموها وترعرعها، حيث اتسعت دائرة المثقفين، وبرزت ملامح الطبقات الاجتماعية.

ظهور الرومانسية في الأدب العربي:

بدأ الاتصال بالثقافة الغربية منذ المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي فأخذت البعثات العلمية تقصد أوروبا لتغترف من الحضارة الجديدة وعادت تحمل هذا التأثير من المثقفين العرب فتأثر معظم الشعراء بنظرائهم في الغرب وفي مقدمتهم خليل الخوري توفي سنة 1907 الذي كان على اتصال تراسلي مع لامارتين.

ويعزو بعض النقاد أسباب ظهور المذهب الرومانسي إلى ما عاناه الجيل العربي أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، من كبت للحريات والعواطف والقيود ومصادرة الأفكار الحرة وممارسة القمع والتعذيب فانطوى الشاعر على نفسه وانسحب إلى دنيا الأحلام متقلبا بين اليأس والأمل.

وكانت هناك رغبة في التجديد، فقد ضاق الأدباء ذرعا بالموضوعات القديمة والصور التقليدية وأرادوا التحرر من القيود القديمة التي كبلت حرية الشاعر في الإبداع.

وقد غزت الرومانسية الشعر العربي على أيدي شعراء المهاجر الأمريكية ثم بعد اتساعها ضمت عدداً كبيراً من شعراء الوطن العربي ومن أبرزهم:

على محمود طه، وأحمد عبد المعطى حجازي، وفرح انطون، وأمين الريحاني، وإبراهيم ناجي، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، وأبو القاسم الشابي، وخليل حاوي، ويوسف الخال، ومحمود درويش، وسميح القاسم، وصلاح عبد الصبور، وشعراء مدرسة الديوان: العقاد والمازني وشكري وخليل مطران (أبو الرومانسية) ..

وقد سار على نهج هذه المدرسة الشعرية من شعراء الخليج كل من: (إبراهيم العريض، وأحمد محمد خليفة، وغازي القصيبي، وأحمد العدواني) في بعض قصائده التجديدية) وغيرهم.

ثم اتسعت دائرتها وتشعبت لتشمل جمعاً غفيراً من جيل الشعراء الشباب في الوطن العربي.

وقد ظهرت الرومانسية في الأدب العربي على صورة مذهب نظري نقدي ثائر قبل أن يجسدها الأدباء في إنتاج فني وقد تبلور هذا الاتجاه في كتابين نقديين هما: الديوان سنة 1921 لكل من عباس محمود العقاد و إبراهيم عبد القادر المازني.

وكتاب الغربال الذي صدر سنة 1922 "ميخائيل نعيمة" وتحت هذا المذهب النظري نشأت عدة تنظيمات أدبية أهمها:

1 - **مدرسة الديوان أو (مدرسة التجديد الذهني)**: دعا إليها- العقاد والمازني - ومن شعرائها عبد الرحمن شكري وقد حملت لواء التجديد والثورة على الأدب المحافظ متأثرة بالمدرسة الرومانسية الإنجليزية وقد نهجت في كتابها (الديوان) المنهج ذاته الذي نهجته (مجموعة الكنز الذهبي) وشعارها هو بيت (عبد الرحمن شكري) في قصيدته (ضوء الفجر):

ألا يا طائر الفردو   س إن الشعر وجدان

وقد قامت هذه المدرسة على دعامتين أساسيتين هما :

- سعة ثقافة أصحابها: فقد عكفت هذه المدرسة على التراث العربي الأصيل وأعطته حقه من التحصيل والتحليل والدراسة.
- الإطلاع الواسع على الأدب الغربي: لقد اهتمت هذه الجماعة بعيون الآداب الأوروبية الغربية وخاصة الأدب الإنجليزي الذي نال قسطاً وافراً من الاهتمام. وقد تميزت أعمال جماعة الديوان ببعض الخصائص الفنية نجملها فيما يأتي:
- كان أدبهم إنسانياً يحمل رسالة سامية، ويرون أنه يجب على الأديب أن يطيل التفكير في الحياة وما تحمله من قسوة وهموم .
- البعد عن الصنعة والتكلف حتى يكون الأدب مفعما بالمشاعر القوية والأحاسيس الذاتية .
- دعوتهم إلى الشعر المرسل وتعدد القافية في القصيدة على خلاف النظام القديم.
- الصدق الفني في التجربة الشعورية لأن القصيدة عندهم تنقل بصدق ما في نفس الشاعر من معان وانفعالات وأحاسيس .

2 - **الرابطة القلمية:**

تمثل شعراء المهجر الشماليين وهي مدرسة قائمة بخصائصها في التعبير والتفكير. تأسست في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1920، برئاسة الشاعر جبران خليل جبران ومن أبرز أعضائها ميخائيل نعيمة رشيد أيوب وإيليا أبي ماضي ونسيب عريضة وغيرهما من أدباء المهجر. تتميز هذه الرابطة بدعوتها إلى التجديد ومبالغتها في ذكر الأوطان كما أنها لا تلتزم بالدقة اللغوية وقواعد الصرف والنحو .

3 - **جماعة أبولو (أبولو رب الشعر والموسيقى عند اليونان):**

هي جماعة أدبية تأسست سنة 1932 دعا إليها أحمد زكي المعروف بأبي شادي، وقد ترأسها أمير الشعراء أحمد شوقي وبوفاته في شهر تشرين الأول/أكتوبر من نفس السنة تزعمها الأديب خليل مطران، وقد انضم إليها علي محمود طه توفي سنة 1949 والشاعر أبو القاسم الشابي توفي سنة 1934 وكذلك الأديب إبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل، وحسن الصيرفي والتيجاني يوسف البشير.

لقد اتخذت الجماعة لنفسها مجلة فنية حملتها لسان حالها دعتها مجلة (أبولو) برئاسة الدكتور أحمد زكي (أبو شادي) وراحت تروج لشعر دي موسيه، وشيلر، وجورج ملتون، وبودلير وغيرهم من الشعراء الأوروبيين المجددين. وهذا الشاعر أحمد شوقي يصور آلام ومعاناة عاشها إخوانه في سوريا:

بني سوريا اطرحوا الأماني وألقوا عنكم الأحلام ألقوا
فمن خدع السياسة أن تغروا بألقاب الإمارة وهي رق
نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا في الهم شرق

ومن أهم خصائص هذه الجماعة: التجربة الشعرية، الوحدة العضوية، الانغماس في الطبيعة، التجديد في القوالب والأوزان الشعرية.

4 - **جماعات أدبية أخرى :**

- العصبة الأندلسية: ومن أبرز شعرائها رشيد سليم الخوري.
- عصبة العشرة: إلياس أبو شبكة.
- النادي الفينيقي: ميشال معلوف.
- الثالوث الرومانسي: أبو القاسم الشابي.

وهكذا نرى أن المدرسة الرومانسية هي مدرسة أدبية كبيرة قدمت خدمات جلية للأدب ونقلته نقلة لا يستهان بها من مرحلة كان أخر ما يثار في الأدب لمرحلة أخرى أصبح الإنسان ومشاعره هما من تسلط عليهما الأضواء باعتبارهما أساس الحياة.